**- المحاضرة رقم (4)**

**الرواد والتجربة الشعرية الجديدة-2**

مثّل ظهور بدر شاكر السياب، جدلا مثيرا للحرج في الساحة الأدبية والنقدية، مفاده ريادة السبق بالنسبة للتجربة الشعرية الجديدة، حيث رأى أنها من حقه هو لا الملائكة، خاصة وأن قصيدته الحرة “هل كان حبا؟“، التي تضمنها ديوانه “أزهار ذابلة“، الصادر في القاهرة عام (1947)، كانت قد كتبت قبل قصيدة نازك الملائكة([[1]](#footnote-1)).

ومهما يكن الأمر، فقد كشف السياب منذ بداياته عن فحولة القديم في أسلوبه ولغته، بحيث لا يتطرق الشك إلى النبوغ الفذّ الذي كان يكمن وراء تلك القصائد، رغم أنه قد ورث عن الجواهري جزالة في اللفظ وعاطفية في الأسلوب، كما تبعه في الصورة الشعرية والنبرة الغاضبة، فاستشعر بإلحاح من التجديد الفعلي ضرورة الانفتاح على تجارب أكثر حيوية في العالم الحديث، فوجدها لدى شعراء مثل: ت. سإليوت، وإيدث ستويل، وييتس، وأودن، وعزرا ﭙاوند، إضافة إلى بعض شعراء الاشتراكية مثل بابلو نيرودا، وناظم حكمت، وفيديريكو غارسيا لوركا، وإيلوار وأراغون، فأقبل على قراءة أعمالهم بنهم([[2]](#footnote-2)).

فاعتبر شعر السياب لأجل هذا، وعلاوة عن كونه رائدا من رواد حركة التجديد الشعري، حدا فاصلا بين مرحلتين: المرحلة المحافظة على شكل القصيدة القديمة، وعلى نظامها في البناء الملتزم بعمود الشعر، والمحافظ على العروض العربي بأوزانه وبحوره، والخاضع لنظام البيت الشعري المنقسم إلى شطرين على طول القصيدة، والمرحلة التجديدية التي حاولت التحرر من النظام المحافظ، ورأت عدم الالتزام بالسطر الشعري المنقسم إلى قسمين، والمحافظ على عدد التفعيلات، وأعطت لنفسها حرية الحركة، وحرية التوزيع في تفعيلات القصيدة وتفعيلاتها([[3]](#footnote-3)).

كما اعتبر شعره ثمرة لهذه الثقافات المتنوعة المتعددة التي احتواها فكره، والتي بدت في شعره بأشكال مختلفة، وبمقادير متنوعة إذ يجمع التراث العربي الكلاسيكي بالأدب الإنجليزي في آن معا، وتجده رومانسيا في مطلع حياته الشعرية([[4]](#footnote-4))، ثم يتحوّل إلى الواقعية، وفيها يمتزج التعبير المباشر بالرمز والأسطورة في ثنائيات متناقضة، فيتجاوز الرومانسية والواقعية، ويتمزق بين المثال والواقع حيث رأى الموت السياسي الذي سبق ثورة تموز 1958م، فعبر عن خيبة أمله من الثورة التي طال انتظارها، وفيها كتب نصه الشعري الشهير “شنانيل ابنة الچلبي“([[5]](#footnote-5))، حيث عُني فيها بالصراع بين الإنسان والشر، مشجبا الظلم والطغيان في رمزية بليغة:

وأذكرُ من شتاء القريةِ النضَّاحِ فيه النورُ

من خلَلِ السّحاب كأنّه النّغَمُ

تسرَّبَ من ثقوبِ المعزفِ – ارتعشتْ له الظّلمُ

وقد غنّى – صباحًا قبلَ... فيم أعدُّ؟ طفلاً كنتُ أبتسمُ

للَيلِي أو نهاري أثقلتْ أغصانَه النشوى عيونُ الحورْ([[6]](#footnote-6))

ثم تأتي المرحلة المأساوية حيث تلبسته فكرة الموت، ولم تغادره حتى وفاته تلح عليه([[7]](#footnote-7))، كقوله من نص عنوانه “حفّار القبور“، وهو نص ملئ بالفيض النفسي الذي يتردد من خلال صور، ومواقف تتجمع خيوطها على مأساة من واقع الحياة:

فكأنّ ديدانَ القبور

فارتْ لتلتهم الفضاءَ وتشربَ الضوءَ الغريقْ،

وكأنما أزِفَ النّشور

فاستيقظ الموتى عطاشى يلهثون على الطريق!

وتدفّع السربُ الثقيلْ،

يطفو ويرسب في الأصيل،

لِجبًا يرنَّق بالظلام على القبور البالياتِ،

وظلاله السوداء تزحف، كالليالي الموحشاتِ،

بين الجنادل والصخور

وعلى القبور!([[8]](#footnote-8))

هيمنت على شعر السياب ظاهرتان، هما الشعور بالغربة، وجدل الحياة والموت، لدرجة اعتبارهما أسّ فعالية تجربته الشعرية الجديدة([[9]](#footnote-9))، وهما ظاهرتان ترجعان إلى النشأة والطبيعة والظروف والنظرة إلى الحياة، وقد برزتا على السطح بسبب لزومهما وليس لتأثيرهما، والحقيقة أن التجربة الشعرية الجديدة عند السياب كانت استجابة لحاجة حقيقية نبعت من طبيعة الفن نفسه، نتبيّنها من خلال مستويين اثنين:

- الأول واع، يدرك، إلى حد ما، الأهمية الحيوية للحركة.

- الثاني، غريزي، يدفعه حدس فني لم يدرك أول الأمر أبعاد التجربة([[10]](#footnote-10)).

اعتمد بدر شاكر السياب في تجربته الشعرية الجديدة على توزيع ملاحظاته بين أسلوب العروض في الشعر العربي والشعر الإنجليزي، فاهتدى إلى إمكانية المحافظة على انسجام الإيقاع في القصيدة، رغم اختلافه عن إيقاع النص، وذلك باستعمال الأبحر ذات التفاعيل الكاملة، على أن يختلف عدد التفاعيل من سطر إلى آخر([[11]](#footnote-11))، وهو الذي جسده نصه “أنشودة المطر“، الذي يقوم على وحدة التفعلية؛ وهي الرجز، وهذا مقطع منه:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،

أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكرومْ

وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر

يرجّه المجداف وهْنا ساعة السحر([[12]](#footnote-12))

على أن التجربة الشعرية الجديدة عند السياب هي أكثر من ثورة على المقاييس العروضية القديمة، تتمثل في الانتقال من البحر إلى التفعيلة ومن البيت إلى السطر؛ بل هي تجربة جديدة تجعل النص الشعري بناءً متماسكًا، يتمظهر بوصفه نظاما تتكامل فيه عناصره، وتنمو متعالقة، لتشكل بناءً فنيًا أساسه الوحدة العضوية، وهذا البناء امتداد لمضمون واقعي، فهو شعر مرتبط بالحياة لكنه بعيد عن الخطابية والمباشرة؛ لأنه ليس وثيقة سياسية أو اجتماعية([[13]](#footnote-13)).

فالتجربة الشعرية الجديدة عند السياب هي ثورة مضمون بالدرجة الأولى؛ ذلك أن المضمون هو الذي يحدد الشكل، والجوهر الجديد هو الذي يبحث له عن شكل جديد ويحطم الإطار([[14]](#footnote-14))، وهو ما جعل الشكل، بنظره، تابعًا يخدم المضمون، ويتشكل بتمظهراته المتنوعة، والمختلفة في آن معا.

وعموما، فقد قامت التجربة الشعرية الجديدة للرواد على ثلاثة أصول، هي:

**1 – الإيقاع**، وجد الرواد أن الإيقاع التقليدي سابق على الموضوعات الجديدة، ومن ثم فهو مقيد لتجاربهم التعبيرية بما يتواءم مع مرحلة سابقة، فبحثوا عن إيقاع جديد يتحمل كتاباتهم الجديدة؛ إيقاع يتحول في كل قصيدة إلى إيقاع القصيدة الخاص، لا إلى إيقاع مُنتَج ببحر محدد([[15]](#footnote-15)).

**2 - الانتقال من القصيدة العربية**،التي تنمو تطابقياً، بحيث تعد القافية نهاية المعنى في البيت ما خلا القصائد القصصية، إلى القصيدة التي تنمو عضوياً في كل أبعادها كغصن شجرة([[16]](#footnote-16)).

**3 - علاقة الشاعر مع المفردة**، وذلك بتجاوز الرواد للمعنى القاموسي الجاهز، إلى إيحائية المفردة المتحولة، مع مراعاة الوظيفية: التعبير، والتداول: الاستعمال، بما تثيره من تداعيات في القوى الذهنية من شأنها فتح أبعاد جديدة ومستمرة، بين النص وقارئه([[17]](#footnote-17)).

ومهما يكن من أمر فقد عكست التجربة الشعرية الجديدة للرواد استجابة واعية لحساسية حقيقية نبعت من طبيعة الفن نفسه، وهي: الحاجة إلى التجديد والتغيير، نلمسها في التحول الجذري تجاه الفعالية الشعرية: مفهوما، ووظيفة، وهدفا، وغاية، نجملها في الآتي:

1 - التعبير عن تجربة الشاعر كما يعيها بقلبه وعقله.

2 - استخدام الصورة الحية وما يتبعها من تداع نفسي.

3 - إبدال التعابير القديمة بأخرى جديدة مستمدة من صميم التجربة.

4 - تطوير الإيقاع الشعري العربي على ضوء المضامين الجديدة.

5 - الاعتماد في بناء القصيدة على وحدة التجربة لا على التتابع العقلي والتسلسل المنطقي.

6 - الإنسان هو الموضوع الأول والأخير في تجربة الشاعر.

7 - وعي التراث الروحي والعقلي العربي.

8 - الغوص إلى أعماق التراث الروحي والعقلي الإنساني.

9 - الإفادة من التجربة الشعرية التي حققها أدباء العالم.

10 - الامتزاج بروح الشعب لا بروح الطبيعة ([[18]](#footnote-18)).

1. )- سلمى خضراء الجيوسي، **الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث**، ص598. [↑](#footnote-ref-1)
2. )- **م.ن**، ص600- 606. [↑](#footnote-ref-2)
3. )- محمد زكي العشماوي، **أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية: الشعر- المسرح- القصة- النقد الأدبي**، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية- مصر، (د.ط)، 2000م، ص139. [↑](#footnote-ref-3)
4. )- محمد التونجي، **بدر شاكر السياب والمذاهب الشعرية المعاصرة**، دار الأنوار، بيروت- لبنان، ط1، 1968م، ص138. [↑](#footnote-ref-4)
5. )- عيسى بلاطة، **بدر شاكر السياب، حياته وشعره**، دار النهار، بيروت- لبنان، ط2، 1972م، ص108. [↑](#footnote-ref-5)
6. )- بدر شاكر السيّاب، **شنانيل ابنة الچلبي**، مكتبة الأدب العراقي المعاصر، منشورات دار الطليعة، بيروت- لبنان، ط1، كانون الثاني 1965م، ص5. [↑](#footnote-ref-6)
7. )- عيسى بلاطة، **بدر شاكر السياب**، ص131. [↑](#footnote-ref-7)
8. )- بدر شاكر السياب، **أنشودة المطر**، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 1969م، ص203. [↑](#footnote-ref-8)
9. )- محمد زكي العشماوي، **أعلام الأدب العربي الحديث واتجاهاتهم الفنية: الشعر- المسرح- القصة- النقد الأدبي**، ص141. [↑](#footnote-ref-9)
10. )- سلمى خضراء الجيوسي، **الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث**، ص606. [↑](#footnote-ref-10)
11. )- بدر شاكر السياب، **كتاب السياب النثري**، جمع وإعداد وتقديم: حسن الغرفي، منشورات مجلة الجواهر، فاس- المغرب، 1986م، ص11- 12. [↑](#footnote-ref-11)
12. )- بدر شاكر السياب، **أنشودة المطر**، ص142. [↑](#footnote-ref-12)
13. )- فاتح علاق، **مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، (د.ط)، 2005م، ص109. [↑](#footnote-ref-13)
14. )- بدر شاكر السياب، **كتاب السياب النثري**، ص86. [↑](#footnote-ref-14)
15. )- عبد العزيز المقالح، **الشعر بين الرؤيا والتشكيل**، دار العودة، بيروت- لبنان، ط1، 1981م، ص41. [↑](#footnote-ref-15)
16. )- **م.ن**، ص42. [↑](#footnote-ref-16)
17. )- **م.ن**، ص43. [↑](#footnote-ref-17)
18. )- يوسف الخال، **الحداثة في الشعر**، دار الطليعة، بيروت- لبنان، (د.ط)، ديسمبر، 1978م، ص80- 81. [↑](#footnote-ref-18)